

البعد الروحي في فتح مدينة وهران سنة 1792 م

أ. علي بن العيفاوي، جامعة مستغانم

اشتهر باي معسكر عاصمة بايلك الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكبير بجديته وصرامته وحبه للعلم والعلماء، وقد ذاع صيته حتى بين الكتاب والمؤرخين والرحالة الأوربيين في بعده الروحي والإنساني وورعه وتقواه وعقيدته وأخلاقه الحميدة، حيث شهدوا له بحسن معاملة العبيد الأوربيين الذين كانوا يمارسون بقصره مختلف الأعمال.

فقد ذكره عالم النبات دي فوتتان (Désfontaines) ⁽¹⁾، بأنه كان كريما معهم ويزودهم بما يحتاجونه من أغذية وقد جعل لهم راتبا مقابل ما يؤدونه من أعمال لديه، ويعاملهم برأفة تتم على ورع وتقوى كبيرين لدى هذا الباي، إضافة إلى تواضعه الكبير مما جعله يتمتع بشعبية كبيرة بين سكان مدينة معسكر.

والواقع أن الباي محمد بن عثمان كان يتميز بشخصية قوية وصرامة كبيرة، متمرسا وخبيرا بالحروب، أبدى شجاعة كبيرة أثبتتها من خلال قيادته للجيش عند ما قام الاسبان بحملتهم العسكرية على مدينة الجزائر سنة 1775 بقيادة اوريلي (Oreilly) الايرلندي، حيث ذكره العقيد استرهازي ⁽²⁾، بأنه كان وراء انتصار الجيش الجزائري على الاسبان من

¹-Peyssonnel et Désfontaines, **Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger**, T2, librairie de Gide, Paris, 1838, p. 184.

² -Walsin Esterhazy, **De la domination Turque dans l'ancienne Régences d'Alger**, librairie De Charles Gosselin, Paris 1840, p 259

خلال حنكته العسكرية على أرض المعركة، وكان على رأس جيش الخيالة الذي كان له شرف هذا النصر الكبير. على الرغم من من امتعاض داي الجزائر من هذا الانتصار، لأن ذلك سيساهم في تزايد شعبية الباي محمد بن عثمان بين السكان مما يجعله يطمع ويسعى للوصول إلى منصب الداوي باعتباره خليفته في الحكم. وقد تجلّى عدم رضى الداوي على هذا النصر أنه لم يجزل العطاء لجيش الخيالة، مما أجبر عدد كبير منهم على الفرار إلى تونس.

لكن الباي محمد بن عثمان سارع إليهم وأجزل لهم العطاء على شكل مكافآت مالية جعلتهم يعودون معه إلى الجزائر. وعلى الرغم من انشغالاته العديدة، لم يثنيه ذلك على إبداء عناية خاصة واهتمام كبير وجلي بالعلم والعلماء من خلال بناء المدارس والمعاهد والزوايا وتكريم العلماء وحفظ القرآن الكريم والمدرسين بالمعاهد التي أسسها بنفسه بمدينة معسكر.....الخ.

ونظرا لمكانة هؤلاء العلماء و رجال الزوايا لدى عامة السكان وتأثيرهم في اتخاذ القرارات كان لزاما على الباي محمد بن عثمان الكبير أن يدرج شيوخ الزوايا والعلماء ضمن خطته وجيوشه العسكرية لفتح مدينة وهران التي كانت أبرز اهتماماته، متبركا بشهر رمضان الكريم ومتمينا بالفتوحات الإسلامية للنبي عليه الصلاة والسلام في هذا الشهر الكريم. حيث كانت معركة بدر في 17 رمضان في السنة 2هـ وفتح مكة في 20 رمضان في السنة 8هـ ، وقد تقرب الباي محمد بن عثمان الكبير من المرابطين الذين كان يقدر

عددهم بأكثر من خمسمائة شخص⁽¹⁾، حيث أغدق وتكرم عليهم بأموال طائلة مما جعلهم يعدوه بالمؤازرة والنصرة والتأييد .

وكان خروج الباي من مدينة معسكر في الثالث من رمضان سنة 1206 للهجرة مارا بمدينة سيق التي مكث فيها عدة أيام ثم مدينة تليلات التي تبعد عن وهران مسيرة ضحوة مع العلم أن الباي كان قد أقام وليمة حضرها عدد كبير من الخواص والعوام وأرسل إلى المناطق البعيدة، فأوتي بجميع أعلام أوليائها الصالحين كعلم سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وأبي مدين شعيب التلمساني، وأحمد بن يوسف الملياني، ومحمد بن عودة ليحضر بها الجهاد تبركا بهم⁽²⁾. وقد أثر هذا الموقف في أهالي مدينة معسكر وضواحيها الذين هبوا بعفوية كبيرة لمساعدة الباي في حربه ضد الاسبان المحتلين لمدينة وهران.

وبدأت المواجهات في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة 1206 للهجرة واشتد القتال بين جيوش الباي محمد بن عثمان الكبير والجيوش الاسبانية حيث بدأت حصون وأبراج وقلاع وهران تتهاوى وتسقط الواحدة تلوى الأخرى مثل حصن مرجاجو المنيع وبرج العيون واستمر القتال لفترة طويلة من النهار، وكان الباي حريصا على تنظيم صفوف الجيوش بتشكيل ثلاثة أرتال، من

1 - أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، نشر وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، 1973، ص 276 .

2 - المصدر نفسه، ص 293 .

أجل إحراز تقدم أكبر كي يتفادى مواجهة الجيش الأسباني ليلاً، وكانت الحصيلة الأولية أكثر من 229 جندي أسباني سقطوا قتلى في ساحة المعركة.

وبدأ الجنود الأسبان في الفرار وكان عددهم 1526 رجلاً، موزعين على عدة مراكز وسارع الأسبان إلى طلب المدد من أسبانيا التي أمدتهم بسبعمئة جندي، بينما لم يستجيب داي الجزائر في تقديم المدد والعون إلى الباي محمد بن عثمان، خوفاً من طموحاته الكبيرة وحصوله على شهرة واسعة بين السكان⁽¹⁾، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بمدينة كبيرة وهامة مثل وهران يسعى الأوجاق إلى الاستيلاء عليها وإحكام سيطرتهم، فسارع الباي إلى نقل مدافعه إلى البرج الأحمر لتضييق الخناق عليهم مما حدا بالأسبان إلى طلب الهدنة التي رفضها الباي عدة مرات، فالأسبان لم يكن باستطاعتهم رد هجوم باي معسكر نظراً للحالة السيئة والأوضاع المتدهورة التي كانوا عليها، حيث عانوا من نقص حاد في المؤونة لجنودهم من جهة، ومعنويات جيشهم كانت منحطة، بسبب طول مدة الحصار من جهة أخرى، إضافة إلى ارتفاع تكاليف هذه الحرب على خزينة أسبانيا⁽²⁾.

¹ -H.D .Degrammont, **Histoire d'Alger sous la Domination Turque**, édition Ernest le Roux, Paris 1887, p. 324.

² - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا 1492-1792، طبعة 2، ش.و.ن.ت الجزائر، 1976، ص 364.

لكن تدخل داي الجزائر حسن باشا أدى بالبباي محمد بن عثمان الكبير إلى الموافقة على الهدنة مع الإسبان على مفضض ثم الانسحاب من المدينة حيث كان يرغب في إلحاق الهزيمة بالإسبان لكي لا يفكروا في الاعتداء مرة أخرى.

وقد ساهمت تكبيرات وتهليلات شيوخ الزوايا والمرابطين في تخفيف جيوش البباي في مواصلة الجهاد وتشجيعهم على طلب الاستشهاد أو النصر وأمام هذا الوضع رضخ الإسبان إلى الصلح مع البباي محمد بن عثمان وفق شروطه وتوقيع اتفاقية الانسحاب من أجل حفظ ماء الوجه، وذلك بحضور حسن باشا داي الجزائر ⁽¹⁾ في مطلع شهر محرم 1207 للهجرة والتي تضمنت عدة بنود أبرزها :

1. انسحاب الإسبان من مدينة وهران والمناطق الخاضعة لهم ومن جميع الحصون والقلاع دون شروط ⁽²⁾.
2. ترك الإسبان كل الأشياء التي كانت موجودة في المدينة خلال حكم البباي مصطفى بوشلاغم وأن لا يحدثوا عليها أي تغيير، كما عليهم إرجاع جميع القنابل والمدافع والذخيرة التي غنمها الإسبان عند احتلالهم لمدينة وهران والمرسى الكبير

- يحي بوعزيز، المراسلات الجزائرية الأسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمريد، 1780-1798 د.م.ج الجزائر 1993، ص 148.¹

- إن الانسحاب الأسباني من مدينة وهران يعتبر بمثابة السقوط الكبير لاسبانيا في بلاد الجزائر، انظر:

² -Léon Gilbert, *l'Algérie ancienne et moderne*, Paris, 1853, p. 241 .

3. يدفع الاسبان لدار السلطان كل سنة مبلغ اثني عشر ألف سلطاني [120 ألف فرنك].

4. يدفع الاسبان 55 ريال لبيت المال 40 منها عن كل سفينة إسبانية ترسو بميناء وهران والباقي لقائد المرسى.

5. لا يسمح لبقية الدول الأوروبية بممارسة التجارة بمدينة وهران دون إذن مسبق من باي وهران محمد بن عثمان الكبير

6. تحمل سفينة إسبانية بصفة رسمية إلى إسطنبول مفتاحين ذهبيين رمزا لتسليم وهران والمرسى الكبير مع جرتين من ماء عيون وهران للخليفة السلطان العثماني كبشرى بالفتح وتأكيده للرابطة مع دولة الجزائر

7. للأسبان الحق في تدمير وتخطيط كل البناءات التي كانت سنة 1732.

8. يسمح للأسبان الراغبين في مغادرة مدينة وهران بالرحيل إلى مدينة قرطاجنة.

9. حصول اسبانيا على مركز تجاري في بلدة جامع الغزوات .

10. أن تشتري اسبانيا من بلاد الجزائر 3000 كيلة من القمح سنويا.

والواقع أن المؤرخ ليون فاي (¹) ، أضاف بعض البنود السرية التي لم ترد في الاتفاقية منها :

1- لا يحق لباي وهران تحديد كمية القمح المصدرة إلى اسبانيا.

2- لا يحق رفع سعر القمح عن الأسعار المحلية الموجودة في وهران.

¹ -Léon Henri Fey, Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination Espagnole, Paris, 1858, p. 259.

3- كل مركب اسباني يدخل إلى ميناء وهران يدفع 55 ريالا منها 40 ريالا لبيت المال و15 ريالا إلى قائد المرسى .

وقد ذكر المؤرخ هنري قارو⁽¹⁾ أن الأسبان اتفقوا مع باي وهران على الانسحاب مقابل حصولهم على امتيازات اقتصادية في بايلك الغرب، مثلما كان عليه حال فرنسا في الشرق الجزائري، وتم الاتفاق على ذلك في وقت سابق بتاريخ 14 جوان 1786، وكان قنصل فرنسا السيد دو كارسي وسيطا بين الطرفين.

ودخل الباي بن عثمان الكبير مدينة وهران منتصرا على الاسبان يوم 24/02/1792، وأشار أبو راس الناصري إلى أن الباي كان يعادي الاسبان بالحرب، ويطرقهم بالجيش، ويقاثلهم ويكافحهم باستماتة كبيرة⁽²⁾، وبعد ذلك شرع في تشييد مسجد على الواجهة البحرية سنة 1792م من ماله الخاص لا زال إلى اليوم يحمل اسمه، واستعادت المدينة أمنها واستقرارها مما جعل الحياة الاقتصادية والحركة التجارية تزدهر بها. مع العلم أن الباي محمد بن عثمان الكبير قد شجع أصحاب الحرف والمهن من الاسبان وغيرهم على المكوث بالمدينة وممارسة أعمالهم بكل حرية مع إعلان عفو شامل عنهم وتقديم تحفيزات لهم من أجل إعادة اعمار المدينة

¹- Henri Garrot, Histoire générale de l'Algérie, imprimerie P.Crescenze, Alger, 1910, p. 582.

²- محمد أبو راس الناصري، القصص المغرب والخبر المغرب عن حال المغرب بما وقع في الأندلس وثغور المغرب، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر تحت رقم 3182، ص 131.

بعد الدمار الذي شهدته أثناء المواجهة العسكرية بين الطرفين الجزائري والاسباني.

ولم تمض مدة وجيزة حتى أصبحت وهران مدينة غنية زاهرة، كما كانت من قبل عندما استوطنها الأندلسيون (1)، بينما ذكرها الجنرال ليون ديديي نقلا عن ديغو سواريس الاسباني، بأنها كانت عبارة عن قرية صغيرة بها ثمانمائة نسمة سنة 1600م، وعمل الاسبان على تنصيرها، ولم يكن بها أي مسجد، بل كان بها خمس كنائس وثلاثة أديرة وصومعتان، وثلاث صوامع على الطريق المؤدي للمرسى الكبير، إضافة إلى مستشفى (2). واكتسب الباي لقب الكبير من الداوي حسان اعترافا له بفضلته على بايلك الغرب، وصدق جهاده .

وذكرت بعض المصادر أن الداوي حسان داي الجزائر، استقبل الباي محمد بن عثمان وقلده الريشة الذهبية وقال له : « أوكلك هذه المدينة الثمينة، وذلك لما أظهرته من شجاعة ونصرة للإسلام، وإني فد عينت ابنك عثمان خليفة لك على بايلك الغرب وابنك محمد قائدا على مدينة فليقة».

وقد وردت سيرة هذا الباي في العديد من المصادر أبرزها كتاب الثغر الجماني في ابتسام الشعر ألوهراي لابن سحنون الراشدي،

- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983 ص 30.¹

² Le General Léon Didier, Histoire d'Oran, tome 7, Librairie L. Petit Oran 1932, p. 360.

وهذا الكتاب عبارة عن قصيدة مطولة تمدح خصال الباي وتثني عليه بعد فتحه لمدينة وهران، والجدير بالذكر أن الكاتب كان من الأشخاص المقربين جدا من الباي ومن خاصته، وعلى دراية تامة بسياسته وتوجهاته، كما كان من بين أفراد الحملة على الأسبان. إضافة إلى كتاب «رحلة محمد الكبير للجنوب الصحراوي الجزائري»، لأحمد بن محمد بن هطال التلمساني، والذي كان الكاتب الخاص والشخصي للباي ملما بكل التفاصيل والأسرار⁽¹⁾.

وخلاصة القول أن الباي محمد بن عثمان الكبير نجح في سياسته على مختلف الأصعدة في إدارة بايلك الغرب -على الرغم من اتساعه - بحكمة وحنكة نادرة قلما تتوفر في عدد كبير من الحكام العثمانيين الذين تداولوا على حكم بلاد الجزائر منذ مطلع القرن السادس عشر ميلادي أي منذ 1518 م إلى مطلع القرن التاسع عشر ميلادي، عند سقوط مدينة معسكر في 06 ديسمبر 1835 ونهاية الحكم العثماني بالجزائر، وهذا نظرا للعديد من الخصال الحميدة التي تميز بها والتي يمكن إجمالها فيما يلي :

1- حسن معاملته للرعية أكسبه ثقة السكان على اختلاف مشاربهم، مما أدى بهم إلى إبداء فروض الولاء والطاعة له على الدوام .

1 - أحمد بن محمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير الى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، دار عالم الكتب القاهرة، 1969 ص 16 .

-2- ورعه واهتمامه الكبير ببناء المدارس والمعاهد والزوايا وتبجيله لحملة العلم وحفظه القرآن الكريم لمكانتهم الرفيعة بين الأهالي، أكسبه احتراماً كبيراً من طرف السكان.

-3- قرب الباي من الرعية من خلال الاهتمام بانشغالاتهم ومشاكلهم اليومية، تواضعه مع مختلف طبقات المجتمع، زادت من ثقتهم به.

-4- كرم الباي المتزايد في الإنفاق على مجالات وسبل الخير، أبدت وأظهرت زهده وتعففه في البحث و الحرص على المناصب الرفيعة .

-5- حرصه الشديد في محاربة العدو الاسباني، أظهر إخلاص هذا الباي في استرجاع كل شبر محتل.

-6- العمل على إخماد الفتن وبؤر التمرد والعصيان ضد سيادة الدولة خاصة في الجنوب الجزائري، وتأديب القبائل الرافضة لمنح الضرائب والزكاة لبيت المال، كشف عن نية صادقة في التفاني خدمة لهذه البلاد وأهلها.

-7- التسامح والمرونة في المعتقد من خلال وجود المذهب الرسمي للدولة، ممثلاً في المذهب الحنفي والقاضي الحنفي، والمذهب المالكي للسكان والإفتاء به أيضاً، أظهر معاملة حسنة للرعية وتقدير كبير لها.

8- تجلي العامل الديني والبعد الروحي من خلال قدوته بالرسول عليه الصلاة والسلام بمبادرته في بناء المسجد بعد هجرته من مكة إلى المدينة، حيث كان أول ما قام به الباي محمد بن عثمان الكبير هو بناء المسجد شكرا لله على نعمة فتح مدينة وهران.

المصادر والمراجع:

ابن هطال التلمساني أحمد، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969.

بوعزيز يحي، المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمريد 1780/1798، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1993.

توفيق المدني أحمد، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1979.

الراشدي ابن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973.

الناصرى محمد أبو راس، القصص المغرب والخبر المغرب عن حال المغرب بما وقع في الأندلس وثغور المغرب، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، تحت رقم 3182

الوزان الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

De Grammont- (H.D), **histoire d'Alger sous la domination Turque**, Paris, 1887.

Désfontaines et Peyssonnel, **voyage dans les régences de Tunis et d'Alger**, 2T, Paris, 1838

Esterhazy Walsin, **de la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger**, librairie de Charles Gosselin, Paris, 1840.

Henri Garrot, **histoire générale de l'Algerie**, Imprimerie P. Crescenze, Alger 1910.

Henri Léon fey, **histoire d' Oran avant pendant et après la Domination espagnole**, Paris, 1859.

Le General Léon Didier, **histoire d'Oran**, tome 7, Librairie L.Petit, Oran, 1932.

Léon Gilbert, **l'Algérie ancienne et moderne**, Paris, 1853.